مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 25

مقالات

زكريا محمد*

تجربة المقاومة
في مخيم جنين

في صيف سنة 1982 وقف الجيش الإسرائيلي متردداً على أبواب "بيروت الغربية". لم يكن واثقاً بقدرته على اقتحام المدينة، على الرغم من الضربات العنيفة التي أصابتها. لكنه حاول أن يختبر هذا الإمكان في منطقتي الأوزاعي والمتحف، فتوصل إلى أن الأمر مكلف وغير مضمون. وهكذا طوى فكرة اقتحام المدينة، التي لم يدخلها إلاّ بعد أن غادرتها القوات المقاتلة الفلسطينية الرئيسية.

لكن مياهاً كثيرة جرت في النهر منذ ذلك الحين مكنت الجيش الإسرائيلي من الاعتقاد أن المدن والتجمعات السكانية لم تعد أماكن لا يمكن اقتحامها. فكل مكان، بعد الآن، صار قابلاً للكسر والاقتحام. إذ إن التطورات التكنولوجية، وما رافقها من تطورات في تكتيكات اقتحام التجمعات السكانية، جعلت من المدينة التي لا تقهر أسطورة من أساطير الماضي.

فقد أدى تصفيح الدبابة المضاعف إلى الحد من قدرة الآر. بي. جي.، بل إلى التهديد بتحويله إلى لعبة أطفال غير مؤذية. كما أن دقة إصابة صواريخ المروحيات ارتفعت إلى حد أن أصبح في إمكان قائد المروحية إرسال الصاروخ إلى النافذة التي يريدها. أكثر من ذلك، صار في إمكان المروحية نفسها ملاحقة فرد ما في الشوارع بأفضل مما تقوم به دورية راجلة، ومن دون إحداث مجازر كبيرة بين المدنيين.

أمّا بخصوص كثافة المباني فإن في الإمكان اتباع تكتيكات مناسبة، مثل تكتيك الاقتحام المتسلسل، الذي يتم عن طريق فتح ثغرة في جدار بيت للوصول إلى البيت الذي يليه بواسطة المعدات الحديثة، بحيث لا تضطر القوات المهاجمة إلى عبور الشوارع والأزقة الضيقة والتعرض لنيران القناصة.

كل هذا، إضافة إلى الاستخدام المكثف للدروع البشرية، جعل من اقتحام المدن والتجمعات السكنية، ومن دون خسائر كبرى أو مجازر، أمراً ممكناً.

وعليه فقد أعلنت النظرية العسكرية الإسرائيلية نهاية أسطورة المدينة التي لا تقتحم.

(*) شاعر وكاتب فلسطيني مقيم برام الله.

وكان الاجتياح الكبير لمدن الضفة الغربية ومخيماتها، وقبل ذلك اقتحام مخيم بلاطة، ثم بعد ذلك الاقتحامات في قطاع غزة، تطبيقاً عملياً لهذا الإعلان. ففي هذا الحدث تم، عبر تكتيك الاقتحام المتسلسل، اقتحام مناطق كثيفة المباني وكثيفة السكان، من دون وقوع خسائر مهمة في صفوف المهاجمين، ومن دون حدوث مجازر كبرى في صفوف المدنيين. كما تم اقتحام قصبات كانت تعتبر عصية وعاصية حتى وقت قريب، مثل البلدة القديمة في نابلس، التي كانت عصية على الاحتلال البريطاني في ثورة 1936، وحتى على الاحتلال الإسرائيلي في الانتفاضة الأولى. أمّا مدن مثل رام الله، فقد اقتحمت خلال ساعات وتحولت شوارعها إلى مسرح للعب القناصة الإسرائيليين، الذين سيطروا على المباني العالية، بدل أن تكون مسرحاً للعب القناصة الفلسطينيين.

كان الاجتياح، إذاً، تطبيقاً عملياً للنظرية الإسرائيلية التي تعلن إمكان تفوق المهاجم على المدافع في حرب المدن. وكانت هذه النظرية وتطبيقها العملي هما المساهمة الإسرائيلية في حروب القرن الجديد الأميركية. هذه الحروب التي كانت نبوءتها في حرب الخليج الثانية، وتبلورت في حرب كوسوفو، ونضجت في حرب طالبان، ثم وصلت إلى قمتها في الحرب الأخيرة على العراق. وفي هذه الحروب يتم حسم الحرب من بعيد، أي من دون اشتباك جدي مع العدو، وأحياناً حتى من دون أن يتمكن المدافع من رؤية مهاجمه. إنها حرب الخسارة رقم صفر من جانب القوة التكنولوجية المهاجمة.

نظرية الحرب الإسرائيلية تأتي كنظرية تكميلية في إطار هذه الحروب؛ أي أنها حرب تبدأ بعد انهيار القوات المعادية أو انسحابها ودخولها المدن للاحتماء بها، أو حين ترفض هذه القوات الانكشاف أمام الحرب التكنولوجية، وتفضل أن تتحصن بالمدن والقصبات.

ويمكن القول إن حدوث اجتياح الضفة قبل الحرب على العراق لم يكن مصادفة، على الأغلب. صحيح أن هذا الاجتياح كان يهدف إلى هزيمة الفلسطينيين وكسر إرادتهم، لكنه كان، إضافة إلى ذلك، بروفة للحرب العراقية، فيما لو جرت مواجهات داخل المدن والتجمعات السكانية. يقول الصحافي الإسرائيلي أليكس فيشمان في "يديعوت أحرنوت": "في حينه جاؤوا [الأميركيون] إلى جنين كي يروا كيف يعملون بالجرافات في المدينة." أي أنهم كانوا هناك في العرض الحي والمباشر. وقد سرت شائعة تقول إن الهجوم الذي جرى على مخيم جنين بعد الاجتياح الكبير، وقبل وقت قصير جداً من بدء الحرب على العراق، كان نشاطاً معداً للأميركيين أساساً. أي أنه كان تدريباً عملياً أجري لمصلحتهم مباشرة، ولم تكن له ضرورة أمنية إسرائيلية.

غير أن التدريب الكبير، أي الاجتياح الذي بدأ في 28 آذار/مارس 2002، حمل

نقطتي ضعف رئيسيتين تؤرقانه وتمنعانه من أن يعمم نفسه كنظرية للحرب التكميلية:

الأولى: إن هذا التدريب جرى في منطقة مغلقة، هي الضفة الغربية، التي تدفق إليها السلاح تحت أقسى الشروط وأشدها. وهذا يعني أنه جرى، من حيث المبدأ، في منطقة آمنة، أي حيث لا وجود لمضادات الدروع أو المضادات الجوية. وعليه فالمروحيات الإسرائيلية كانت تتجول في السماء بحرية مطلقة، كما الدروع، من دون خوف جدي حتى من الآر. بي. جي. الذي فقد كثيراً من فعاليته القديمة. وهذا يعني أن التدريب الإسرائيلي أشبه بتجربة غير مكتملة الشروط أجريت في مختبر، وأعطت نتائج قد تكون مضللة جداً.

بناء على ذلك فإن العملية الإسرائيلية كانت أقرب إلى أن تكون، في الواقع، محاولة لقمع شغب مدني في تجمعات سكنية منها إلى تدريب حقيقي لاجتياح مدن حصينة ومستعدة للقتال. بل لعله يمكن القول إن هذا التدريب، وهذه العملية، كانا يهدفان في الأساس إلى منع تكوُّن مناطق غير قابلة للاجتياح، وإجهاض إمكان ذلك. وعليه فإن هناك شكاً في أن يتمكن الاجتياح الإسرائيلي من تعميم نفسه كنموذج مضاد للمدينة التي لا تقتحم. فهل يمكن مثلاً اجتياح مدينة صور اللبنانية الجنوبية، المفتوحة على المدد، بمثل السهولة التي اجتيحت بها رام الله؟

الثانية: إن مخيم جنين أوشك، بشكل ما، أن يقدم نموذجاً ينسف النظرية الإسرائيلية من أساسها، وأن يعيد تثبيت فكرة التجمع الذي لا يقتحم، أي فكرة بيروت أو ستالينغراد. فقد قدم هذا المخيم أقصى ما يمكن أن تقدمه منطقة مغلقة، واصلاً بالأمور إلى حد التذكير بأساطير المدن المقاومة. صحيح أنه نموذج مصغر، لكنه نموذج محبط بالنسبة إلى نظرية الحرب الإسرائيلية الجديدة.

طبعاً لم يكن لمخيم جنين، ولا حتى لنابلس أو غيرها، تخطي الظرف وهزيمة القوة المهاجمة، لكنه أشار إلى هذا الإمكان، وفتح الباب أمامه.

من أجل هذا يمكن القول إن معركة مخيم جنين ستدخل التاريخ العسكري للقرن الحادي والعشرين من باب واسع. كما أنها ستكون مجالاً للدراسة العسكرية، لا من زاوية أهميتها المحلية الفلسطينية، وإنما من أجل أهميتها العامة؛ أي بسبب الإمكان المتفجر الذي طرحته.

كذلك يمكن القول إن "أبو الجندل"، قائد معركة المخيم، سيقف في التاريخ العسكري على منصة توازي المنصة التي يقف عليها خصمه رئيس هيئة الأركان العامة الإسرائيلية وقتها، شاؤول موفاز، إن لم ترتفع فوقها. صحيح أن موفاز سحق المخيم في نهاية الأمر، لكنه لم يفعل ذلك إلاّ بعد أن أوصل المخيم رسالته: إن ستالينغراد ممكنة في القرن الحادي والعشرين.

مخيم جنين، لماذا؟

يمكن القول إن اجتماع عدد من الأسباب والمصادفات هو الذي أدى إلى جعل مخيم جنين المكان الملائم لإيصال الرسالة. وهذه الأسباب هي:

أولاً: إن المخيم تحول إلى نقطة تجمع للمطاردين من جانب قوات الاحتلال، وللمطلوبين من السلطة بناء على تعهدات أوسلو. وقد بدأت هذه الحركة منذ انتفاضة النفق سنة 1996. فمنذ ذاك الحين أخذ بعض العناصر المتمردة يجد مكاناً آمناً له في المخيم. وقد كان من هؤلاء "أبو الجندل" ذاته. ومع انفجار الانتفاضة الثانية تواصل هذا الاتجاه وتسارع، بحيث أصبح المخيم مأوى لبضع عشرات من المطاردين والمطلوبين. وكان نهر من الدماء بين هؤلاء والعدو.

ثانياً: إن تفاهماً ما جرى بين السلطة والمطلوبين يقضي بأن السلطة لن تلاحقهم إلى المخيم. إنه تفاهم غريب حقاً، لكنه حدث على أرض الواقع فعلاً. فكل مطلوب من جانب السلطة تحت الضغوط الإسرائيلية، يستطيع أن يذهب إلى المخيم من دون أن يخشى اعتقال السلطة له. وعليه تكون السلطة وضعت هذا المخيم، بإرادتها أو بغير إرادتها، خارج سلطتها. لقد صار منطقة لا تنطبق عليها القوانين ذاتها.

ثالثاً: انطلاقاً من هاتين النقطتين صار المخيم ملاذاً آمناً، إلى حد ما، ضمن توازن القوى الذي كان قائماً قبل الاجتياح. وقد اكتشف المطلوبون المحتمون به أن البقاء فيه أفضل من الخروج منه. يقول أحد المقاتلين الأسرى الذين خاضوا معركة المخيم حتى النهاية: "من تجربة الاجتياحات السابقة تكونت لدينا فكرة أن المكان الأكثر أمناً بالنسبة لنا هو داخل مخيم جنين... لم يكن أمامنا إلاّ أن نصمد في مخيم جنين لأن الخروج منه خطر."*

وهكذا جمع المخيم كتلة مطلوبة من العدو ليس لها ممر انسحاب، وليس لها مكان آخر تذهب إليه.

رابعاً: إن المقاتلين في المخيم كانوا على علاقة شك، بل عداء أحياناً، بأجهزة السلطة الأمنية. وعلى الرغم من احترام كثيرين منهم للقيادة السياسية، ممثلة في الرئيس عرفات، فإن الشكوك كانت تملأ قلوبهم تجاه نيات أجهزة الأمن. وقد جرت قبل الاجتياح الكبير محاولة لإخراج بعض المطلوبين من المخيم ووضعهم في أماكن آمنة خارجه، على ألاّ تطالهم يد الإسرائيليين. إلاّ إن هذه المحاولة باءت بالفشل حين شك هؤلاء في أن بعض الأجهزة ربما أبعدهم من أجل تسهيل اقتحام المخيم من جانب

(*) هذا القول وغيره أدناه مما نقل على ألسنة الأسرى مأخوذ من مسودة كتاب ستصدره مؤسسة "مواطن" في رام الله قريباً بعنوان: "شهادات مخيم جنين". والكتاب مجموعة مقابلات مع قادة المقاومة الذين شاركوا في القتال حتى سقوط المخيم، أجراها معهم زميلهم السجين وليد دقة. ولعل هذا الكتاب أفضل كتاب عن تجربة المخيم حتى الآن.

الإسرائيليين. وعليه فقد عادوا إلى المخيم جميعاً.

خامساً: تكوُّن مرجعية محلية للمقاتلين داخل المخيم، وخصوصاً لمقاتلي كتائب الأقصى. فهؤلاء تخلصوا من الترتيب الهرمي الذي كان يمكن أن يجبرهم على التزام مواقف لا يقتنعون بها. يقول أحد المقاتلين الأسرى من كتائب الأقصى: "مرجعيتنا العليا ككتائب لم تتعد المخيم." صحيح أن هناك من كان يمُون عليهم في وسط قيادات "فتح" وكوادرها الوسطى بفعل العلاقات الشخصية، وبفعل أشكال الدعم الذي وفروه لهم في وقت ما، لكنهم لم يكونوا يتلقون الأوامر منهم في الحقيقة.

سادساً: منح تجمع المطلوبين والمطاردين المخيم خبرة في مجال الاشتباك والتفخيخ. ومن هؤلاء كان الشهيد "أبو الجندل"، والشهيد محمود طوالبة، والشهيد زياد عامر. ويمكن إرجاع خبرة بعض هؤلاء إلى بيروت ذاتها. فـ "أبو الجندل" كان شبلاً يعرف استخدام الآر. بي. جي. وقت اجتياح بيروت.

سابعاً: وقوع المخيم في دائرة تتميز بوجود قوي للروح الدينية المجاهدة، الأمر الذي دفع بفكرة الاستشهاد إلى حدودها القصوى. يقول أحد الأسرى إنه من منطقة جنين خرج شعار "الشهيد هو القائد"، الذي جرى تعميمه في كل المناطق.

ثامناً: إن المخيم تعرض لاجتياحات متواصلة قبل الاجتياح الكبير. وقد بلغ عدد هذه الاجتياحات خمسة أو ستة. وكان آخرها وقع قبل أسبوعين من الاجتياح الكبير، الأمر الذي منح المقاتلين خبرة والناس معرفة.

وهكذا فقد كان كل شيء في المخيم يدفع نحو المواجهة لا نحو الهرب والاستسلام، الأمر الذي مكن المخيم من إيصال رسالته التي تحدثنا عنها.

كيف حسمت المعركة

في كل حال، تمكن المقاتلون في المخيم من صد أغلب الهجمات الإسرائيلية حتى اليوم السادس تقريباً. لم تتمكن الدبابات من التقدم إلاّ ببطء، على الرغم من أن الكاسحات أزالت الألغام المزروعة في الشوارع، بسبب عنف المواجهة. لكن في اليوم السادس حدث تطوران رئيسيان أثّرا في سير المعركة، بل أديا إلى حسمها:

الأول: بدء الخروج المكثف للمدنيين من المخيم. فبعد أن اشتد القصف وتزايدت الإصابات بين المدنيين، سمح المقاتلون لهم بالمغادرة، أو أنهم اضطروا إلى السماح لهم بذلك نتيجة ضغط الشارع ومخاوفه. وكان الإسرائيليون في الواقع ينتظرون هذه اللحظة ويدفعون نحوها. فقد كانوا يحاولون إقناع المدنيين بالخروج عبر مكبرات الصوت، وربما عبر إيقاع الإصابات بينهم.

وبدءاً من هذه النقطة صار وضع المقاتلين حرجاً. فقد صعب تموينهم، وصار العثور على الماء مشكلة، وخصوصاً بعد أن أصيبت أنابيب المياه في المخيم. وفي اليوم

التاسع أصبح الوضع حرجاً جداً. يقول أحد المحاربين الأسرى: "حصل نقص في الطعام في اليوم التاسع، أي بعد خروج الأهالي من المخيم... بعد اليوم التاسع أخذنا نعتمد على تجميع أباريق ماء ووضعها في البيوت التي نمر بها."

هذا وكان المقاتلون خاضوا منذ اللحظة الأولى للاجتياح حرباً جدية لتطمين الأهالي، وبث الثقة في نفوسهم، وإقناعهم بعدم مغادرة المخيم. وقد قاموا في سبيل ذلك بكثير من المبادرات. فمثلاً، عندما بدأت القوات الإسرائيلية التقدم تم تنظيم احتفال غريب جداً وبهيج لإشعار الناس بالثقة وعدم الخوف: أطلقت ألعاب نارية احتفالية في السماء، وقام شيخ يدعى "الخاروف" يملك عدة صوفية بضرب طبوله وصنوجه في حارات المخيم، الأمر الذي أثر في معنويات الناس إيجاباً.

بعد ذلك استخدمت مكبرات الصوت في الجوامع بكثافة لنفي الشائعات وإطلاق شائعات مضادة. وكانت مكبرات الصوت هذه تدعو الجنود الإسرائيليين إلى الاستسلام، وهو عين ما كان يحدث على خطوط التماس في حصار بيروت. وكان المقاتلون أعدوا مكبرات صوت إضافية في حال توقفت مكبرات الصوت في المساجد عن العمل.

لكن الضغط الإسرائيلي وصل إلى حدود أرغمت المقاتلين على قبول فكرة مغادرة الأهالي، على الرغم من بقاء عدد بسيط أصر على مشاركة المقاتلين في مصيرهم.

الثاني: وصول معدات جديدة، ومنها جرافة ضخمة، إلى مسرح العمليات. فمنذ وصول هذه الجرافة الضخمة جرى انقلاب في الميدان. وعلى الرغم من أن المقاتلين خاضوا بعض أنجح معاركهم بعد وصولها، ومنها المعركة التي خسر فيها الإسرائيليون ثلاثة عشر قتيلاً، فإن المعركة تحولت بعد وصول هذه الجرافة إلى هروب دائم من أنيابها. لم تعد الدبابة، أو المروحية، هي العدو الأول وإنما الجرافة.

يقول أحد المقاتلين الأسرى: "تم استخدام الجرافة في اليوم السابع (هناك من يقول السادس) للاجتياح في حارة الدمج. وقد أحضروها بعد أن واجهوا مقاومة شرسة في تلك الحارة التي تتميز بضيق أزقتها." ويضيف آخر: "لم نتوقع دخول الجرافة التي أطلقنا عليها اسم الغول إلى المخيم... لم تؤثر فيها العبوات ولا حتى قذيفة آر. بي. جي. أطلقها الأخ أبو الجندل (ويبدو أنه كان يحمل قاذف الآر. بي. جي. الوحيد في المخيم). وأذكر أنه سقط سقف بيت على الجرافة ولم يحصل لها شيء." ويزيد مقاتل آخر: "ثم تقدمت جرافة من مركز المخيم... فجّرنا بها عبوة ناسفة فلم تتأثر. حاول أحد الإخوة حرقها من خلال الوقوف على سطح أحد المنازل وسكب البنزين وإشعال النار، لكن من دون جدوى."

وهكذا نجحت الجرافة.

نجحت حيث أخفقت الدبابة والمروحية.

كانت الجرافة، إذاً، بطل الجانب الإسرائيلي. لهذا أعطي سائقوها النياشين من الجيش الإسرائيلي؛ فقد صارت رمز انتصاره في المخيم.

يصف أحد المقاتلين الوضع بعد وصول الجرافة: "بعد ذلك أخذنا ننسحب من بيت لبيت، حيث أن بقاءنا في موقع واحد يعني أنه سيتم دفننا أحياء."

لكن لماذا تأخر الإسرائيليون في استخدام الجرافة الضخمة؟ هل لأنهم لم يكونوا يعرفون قدراتها جيداً في مثل هذه الحال، أم أنهم كانوا ينتظرون خروج المدنيين؟ هذا سؤال لا نستطيع الإجابة عنه بالمعلومات التي لدينا.

في كل حال، فعند استسلام آخر المقاتلين شوهد أكثر من عشر جرافات تقوم بعملها في أنحاء المخيم!

لكن هذا الأمر يطرح سؤالين:

أولاً: هل يمكن للجرافة أن تكون بهذه الأهمية في حال تجمع سكاني في بناء صلب يختلف عن أبنية المخيم الهشة؟

ثانياً: إذا كان اقتحام مكان يقتضي جرفه وإزالته عن وجه الأرض، فهل يكون هذا اقتحاماً في الحقيقة؟

إن اقتحام مكان يختلف طبعاً عن تدميره. وهكذا تصل نظرية الحرب الإسرائيلية إلى مأزق. فإذا أردت اقتحام مكان عليك أن تمحقه. وتطبيق مثل هذا على تجمع سكاني كبير قد يعني ضربه بقنبلة نووية.

وعليه فإن تدمير المخيم، أو بصورة أدق تدمير معظمه، يلغي فكرة الاجتياح. وبالتالي يمكن الحديث عن اجتياح نابلس أو مخيم بلاطة، لكن لا يمكن الحديث عن اقتحام مخيم جنين. فلم يعد هناك مخيم كي يقتحم.

ما جرى في مخيم جنين لم يجر في مخيم بلاطة. فالجرافة لم تكن ضرورية هناك، أو لم تكن مكتشفة بعد، أو لعل المقاومة لم تكن بالضراوة التي كانت عليها في مخيم جنين بحيث ترغم الإسرائيليين على اكتشاف الجرافة؛ أي بحيث ترغمهم على الانتقال من "الاقتحام" إلى "التدمير". لذا فقد اقتُحم المخيم بالطريقة المتسلسلة، وفُجّرت عبوات الشوارع بقذائف المروحيات.

أمّا في مخيم جنين فلم يكن تكتيك الاقتحام المتسلسل هو التكتيك السائد. لم ينجح هذا التكتيك كما نجح في أماكن أُخرى. ويبدو أن مقاتلي المخيم استفادوا من تجربة الأماكن الأُخرى فتمكنوا من قلب التكتيك واستخدامه ضد الإسرائيليين. أي أنه كان هناك اقتحام متسلسل مضاد قام به المقاتلون لنصب الكمائن للعدو. يقول أحد المقاتلين: "كنا نقوم بفتح ثغرات في البيوت وعبرها، وننتقل من خلالها... كنا نكمن

للجيش داخل هذه البيوت وفي هذه الثغرات كي نفاجئهم. وقد تمكنا بفعل ذلك من السيطرة الجيدة في البداية على كل مناطق المخيم." وهذا يعني أن قلب التكتيك جرى مبكراً، وبفعل دراسة حالات الاقتحام في المناطق الأُخرى والاستفادة من خبرتها. وبحسب بعض المقاتلين الأسرى، فإن الشهيد زياد العامر كان هو مبدع "تكتيك فتح المنافذ والثغرات من بيت لبيت، والتي استخدمها العدو في مخيم بلاطة."

فيما يخص عبوات الشوارع فإنها لم تكن ذات نفع في مخيم جنين، حيث تم تفجيرها عبر كاسحات الألغام. لذا كان التركيز على "الأكواع"، وهي عبوات محلية الصنع مكونة من المواسير المعدنية، التي كثيراً ما كانت سلاح الأشبال. لكن العبوات الجانبية كانت شديدة التأثير. فقد كان محمود طوالبة اكتشف، قبل استشهاده، أن في الإمكان تفخيخ مواسير المياه والحنفيات على حيطان المخيم. وكان هذا أسلوباً مبتكراً. يقول أحد المقاتلين: "تم تفخيخ المواسير والحنفيات الممتدة على جدران بيوت المخيم. كان الجنود يظنونها مواسير ماء فيقتربون منها بدون حذر لحاجتهم إلى الجدران للاحتماء بها، وعندها يتم تفجيرها، وهي عادة ما تكون بمستوى رأس الجندي الذي يحتمي بالحائط."

هذه التكتيكات أطالت أمد المواجهة، وأحرجت الجيش الإسرائيلي، الذي وقفت كل قياداته على مشارف المخيم تراقب المعركة وتقودها. فقد تحول صمود المخيم إلى عار لنظرية الحرب الإسرائيلية وتشكيك في جدواها.

وعندما استسلم آخر المقاتلين في اليوم الحادي عشر كان هناك، بحسب شهادة آخر المقاتلين الأسرى، نحو 20.000 جندي يراقبون مشهد الاستسلام. كانوا يريدون أن يبصروا بأعينهم من حقق معجزة صمود المخيم. فقد فعل هذا المخيم ما لم تفعله مدن كبرى تعرضت للاجتياح، مقدماً أقصى ما يمكن تقديمه في منطقة صغيرة ومغلقة، ومبيناً الحدود التي يمكن لصمود مثل هذه المناطق أن يبلغها.

والغريب أن تجربة المواجهة المسلحة كلها في الانتفاضة الثانية جرت على أرض اتفاق أوسلو. فمن دون هذا الاتفاق المكروه لم يكن في الإمكان وصول حتى هذا القدر الضئيل من الأسلحة إلى أيدي الناس. كما أن من دونه لم يكن ليتدرب الألوف على استخدام هذه الأسلحة. وفوق هذا كله لم تكن لتتشكل مناطق شبه آمنة هي ما يدعى بمناطق (أ) التي كانت تحت سيطرة السلطة. ففي هذه المناطق تم التدرب على السلاح، وعلى تحضير المتفجرات والعبوات، في ظل وضع شبه آمن دام بضعة أعوام، إلى أن جاء الاجتياح ليدمر هذه الدفيئة كما سماها الإسرائيليون. لكنها لم تدمر إلاّ بعد أن زرعت فكرة المواجهة المسلحة، وفرضت تجربتها، ووضحت حدودها.

مجزرة أم أسطورة؟

لكن ما الذي جرى حتى انتقلنا من الحديث عن صمود المخيم في لحظة ما إلى الحديث عن مجزرة؟

كيف حدث أن مأثرة الصمود نُسيت لمصلحة الحديث عن مجزرة؟

ثمة أناس يعتقدون أن هذا جرى عمداً، وبشكل مدروس، لإخفاء البطولة والقفز عنها. لكن الأمور فيما يبدو لم تكن كذلك. إذ نفهم من شهادات المقاتلين الأسرى أن شرارة فكرة المجزرة خرجت من المخيم؛ أي أن المقاتلين هم المسؤولون عن التشوش الذي حدث. فقد ظن قسم منهم أن الحديث عن مجزرة وعن قتلى بالمئات قد يؤدي إلى تكبيل أيدي الإسرائيليين ومنعهم من ارتكاب الجرائم. كما أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن تضخيم الأمور إلى هذا الحد قد يدفع الجمهور العربي إلى الثورة. وعليه، فقد كان هذا نوعاً من الحرب الإعلامية المقصودة. وتصاعد هذا الأمر بعد المعركة التي سقط فيها ثلاثة عشر عسكرياً إسرائيلياً. فقد خشي المقاتلون أن تدفع هذه الخسارة الإسرائيليين إلى الجنون. لذا رفعوا حدة الحديث عن المجازر. بل إنهم أعلنوا أن جميع المطلوبين قتلوا، وذلك كي يخففوا الضغط عنهم، ولم يكن هذا حقيقياً. يقول أحد المقاتلين الأسرى: "كل المبالغة في عدد القتلى كانت حرباً إعلامية بهدف كسب الرأي العام وإثارته ضد جرائم العدو البشعة وردعه، في الوقت ذاته، عن القيام بالمزيد... وقد رأى بعضنا أن هذه الإشاعات كانت مضرة ولم تفدنا بشيء."

يُذكر هنا أن تصريح شمعون بيرس فيما يتعلق بالمخيم، والذي أعلن فيه أن الإسرائيليين ربما ارتكبوا مذابح في المخيم، متحدثاً عن أرقام كبيرة من القتلى، ساهم في تثبيت ما أراد المقاتلون أن يكون حرباً إعلامية. وعليه فقد نُسيت حكاية الصمود لتحل محلها حكاية المجزرة.

لقد كان هناك طبعاً جرائم حرب ارتكبها الجيش الإسرائيلي في المخيم؛ إذ تم قتل مدنيين وأسرى. لكن لم يكن هناك مجازر على نطاق واسع. فقد بلغ عدد الشهداء من المقاتلين نحو 35 مقاتلاً. أمّا المدنيون فقد بلغ عدد الشهداء منهم 25، إضافة إلى عدد كثير من الجرحى. وعليه، كان هناك نوع من التوازن في عدد القتلى بين الطرفين. فبحسب الإسرائيليين كان عدد قتلاهم 28 جندياً. لكن المقاتلين يعتقدون أن العدد هو 35 قتيلاً.

في كل حال، كانت معركة المخيم معركة شديدة التعقيد ومفعمة بالدروس والعبر في المجالين العسكري والنفسي، وفي مجال العلاقة بالأهالي وبوسائل الإعلام. وكل هذا بحاجة إلى الدراسة والتقويم. لكن من سوء حظ تجربة المخيم أن المواجهة في الحرب الأميركية على العراق لم تتمكن من حمل رسالته. فهناك تساقطت المدن العظمى

من دون قتال كما تسقط أوراق الخريف. وبدا كأن صرخة المخيم كانت مجرد صوت صارخ في البرية. لكننا نظن أن هذه لحظة موقتة، وأنه سيجيء الوقت الذي تستعاد فيه هذه التجربة، وتدرس، وتستوعب.

ولعل الدرس الأول لهذه التجربة يتمثل في إرادة القتال. فمن دون إرادة قتال لن تنفع الأسلحة والجيوش، ولن ينفع حجم المدن، ولا عدد سكانها. وعليه فهذه التجربة تعيد تثبيت الحقيقة الأساسية، وهي أن الإنسان هو القيمة الأولى، وأن إرادته فوق التكنولوجيا.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf